نخرج بها، بعد قراءتنا الرواية، هو ان ميخائيل، استكمالاً لما بدأه في «حفنة من ضباب»، يستكمل عملية تصفية حساباته مع الحركة الشيوعية في اسرائيل، ليقدّم الينا عالماً مهزوزاً في روايته الاخيرة «بوق في الوادي».

فتحي؛ الانقسام على الذات: فتحي هو عربي مشهور كشاعر، ويشارك زملاءه اليهود العمل في الحزب الشيوعي الاسرائيلي.

يقيم فتحي في قرية يرى اهلها به انه انسان فقد عروبته، ويرى به اليهود انه عربي متطرف. ولقد خطب فتحي اخت وصفي، مع انه ما زال يقيم علاقة مع «دفنه» اليهودية التي تزوره في بيت شولا.

احاسيس فتحي القومية لا تتماشى مع شيوعيته (اميته)، بل تزداد حين يعلم بأن الجيوش العربية انتصرت على الجيش الاسرائيلي في بعض المواقع. واحلامه القومية تطغى، في احيان، على الايديولوجيا الشيوعية التي يؤمن بها. لذا، فهو يحمل نقيض ما يؤمن به، ويحلم باسترداد البلاد التي اغتصبت على ايدي اليهود. وتنتاب فتحي مشاعر متضاربة بشأن صديقيه، شولا ومردوخ، اللذين اجاراه في محنته. ويرى انه سيساعدهما حين يسترد الوطن المسلوب وسيحميهما، فهو يلجأ في دارهما. ويظل فتحي اسير البيت واسير افكاره، دون ان يقوم بأي فعل. ويدرك، في النهاية، ان شولا ليست الاّ يهودية، وهو ليس الاّ عربياً.

تثير شخصية فتحي اسئلة كثيرة. لكننا ندرك، من خلال قراءة الرواية، انها شخصية واقعية (وليست مجرّد بوق، او رمز، لتفريغ آراء الكاتب بواسطتها)، وفيها تناقضات جمّة. لكن كل هذا لم يمنع ان تكون شخصية نمطية ومقولبة من الطراز الاول، وحتى مشوّهة في احيان كثيرة.

اذا اردنا ان نعدّد سلبيات الشاعر الشيوعي فتحي، فسنجد الكثير. فالشاعر فتحي يحمل نظرة تعال على ابناء شعبه في المناطق المحتلة (ص ٤٦)، ويرى الشاعر بدم احد الشهداء الفلسطينيين وسخاً: «لم اقصد ذلك يا ابتسام. الدم مثل أي وسخ آخر، يكفي غسله مرة واحدة» (ص ١١٨). واللقاء الذي يجرى بين عبلة ومجيد والشاعر في المناطق المحتلة ما هو الاّ تأكيد على نذالة الشاعر وانتهازيته وساديته. ولا يقتصر الامر على ذلك، بل ان الشاعر يغضب ويشعر بأنه مهان (هو المسلم) امام فؤاد المسيحي! والفتاة البتول التي يحلم الشاعر بالزواج بها وخطيبته الساذجة هيام (ص ٩٧) ونقاش شوشانا مع شولا في ان الشاعر سيؤكد لاصحابه انه نام في بيت شولا وقت الحرب، واثباتاً على رجولته وفحولته سيؤكد لهم انه ضاجعها (ص ١٩٦ ـ ١٩٧). والشاعر تقوده غرائزيته وحيوانيته الى استغلال كونه شاعراً لاقامة علاقات مع فتيات وابتزازهنّ جنسياً. أهذا هو العربي والشاعر كما يراه ميخائيل؟!

ولا يترك الكاتب الأمر دون ان يؤكد حقيقة انقسام الذات الذي يحمله الشاعر في نفسه: مع انه يستجير في بيت يهودي ورفيق حزب، يحلم الشاعر بالقضاء على اسرائيل. فقبل نشوب الحرب بيوم قال الشاعر لوصفي:

« ـ هذا لن يستمر زمناً طويلاً.

« ـ ستترك الحزب ؟

« ـ لا، دولتهم ستمحى» (ص ٣٤٣).